الثراء الحقيقى..

عزيزى شريف :

لابد أنك عشت مع مصر كلها ، بل العرب أيضا ، مهرجان الفرحة الكبيرة بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب والفنون .

وجائزة نوبل كما تعرف هى أسمى جوائز التقدير على مستوى العالم كله ، وقد أخذت اسمها من اسم صاحبها الفريد بيرنارد نوبل .

كان نوبل مهندسًا كيماويًا ، إليه يرجع الفضل فى اختراع مادة الديناميت والمتفجرات ، وعندما توصل إلى اختراعه فقد كان هدفه أن يخفف عن الإنسان جهده ، وييسر له المشاق التى يواجهها فى شق الطرق وفى اكتشاف المعادن فى المناجم ، وفى تمهيد الأرض لاستثمارها ، كان نوبل يقصد باكتشاف الديناميت أن يكون رسول خير إلى البشرية ، ولكنه فوجئ باختراعه يدخل معامل البحث أساسًا للقتل والتدمير ، كان يريد الحياة فوجد أن اختراعه أدى إلى موت الكثيرين الذين استخدم ضدهم ، وكان يهدف إلى أن يساعد الديناميت الإنسان فى البناء ، فإذا به يجد اختراعه وسيلة لنشر الهدم والتدمير ، ومن فرحة بالغة باكتشافه أحس الفريد نوبل بالألم يعتصره ويخنق مشاعره ، ولقد كان اختراعه سببًا فى تدفق الملايين عليه ، فالكل راح يتسابق لاستخدام هذه الاختراع ويدفع لصاحبه ثمن اختراعه الذى نشر الموت والدمار والدماء فى كل العالم ،

ولأنه أراد أن يكفر عن اختراعه الذى تحول إلى جريمة كبرى ارتكبها ، فإنه أوصى بأن تتحول ثروته إلى وسيلة لنشر السلام والحب وأجمل المعانى التى من أجلها تبتهج البشرية وتحلو الحياة ..

كانت وصية الفريد نوبل ، وهو من أصل سويدى ، أن يقسم عائد ثروته الضخمة إلى خمس حصص .

توزع على خمسة من الذين يتم اختيارهم على مستوى العالم كله فى خمسة فروع : الطبيعة ، والكيمياء ، والطب ، والأدب ، والسلام ، بحيث يفوز بالجائزة فى كل من هذه الفروع من يكون قد قدم اختراعًا أو كشفًا أو عملاً يفيد البشرية ويخفف آلام الإنسان ، ويمتع مشاعرهم بالخير والحب والسلام ..

ولقد مات نوبل فى عام ١٨٩٦ ولكن الأمر احتاج إلى ٥ سنوات كى يتم الترتيب والإعداد لاختيار الفائزين وتسليمهم جوائزهم فى ١٠ ديسمبر ، وهو نفس اليوم الذى مات فيه نوبل .

واعتبارًا من عام ١٩٠١ عرف العالم لأول مرة الفوز بجائزة نوبل ، وقد احتفظت بمكانتها وقدرها ، فلم تبزها أو تتفوق عليها أية جائزة أخرى حتى اليوم ..

وما عدا جائزة نوبل للسلام التى منحت للرئيس الراحل أنور السادات ، لم يحدث أن فاز عربى واحد بأية جائزة من جوائز نوبل خلال الـ ٨٧ سنة الماضية ، ولكن ها هو ذا الأديب والروائى المصرى نجيب محفوظ يفوز هذا العام بجائزة نوبل للآداب والفنون ليسجل ليس فقط حصوله على هذا الوسام الرفيع ، وإنما كأول مصرى وعربى يفوز به .

كانت أجمل مفاجأة للجميع ، وأولهم نجيب محفوظ نفسه الذى كان نائمًا عندما رن التليفون فى بيته يحمل لزوجته النبأ السعيد ، وعندما ذهبت إليه الزوجة تبشره وتبلغه الخبر فإنه نظر إليها بوجهه الهادئ وقال لها : «بلاش أحلام» .

وعندما تأكد أن الحلم حقيقة ، وأن الخبر أصبح سطورًا مضيئة تطوف كل العالم فإنه فى أول تصريح أدلى به تعبيرًا عن شعوره قال إنه فى هذه اللحظة يذكر كل الذين رحلوا من عظماء مصر : طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم فقد كانوا أجدر بهذه الجائزة ، وهذه هى القيم العظيمة ..

القيم الأخلاقية والمعنوية التى يتصور البعض أنها فقدت قيمتها فى مجتمعات وعوالم تسيطر عليها المادية ويترجم كل شىء فيها إلى قيم مادية أو سعر محدد ..

ولكن هذا هو نجيب محفوظ فى هذا العالم ، ملابس بسيطة ، سكن بالإيجار فى شقة متواضعة ، لم يكن فى البيت جهاز فيديو حتى قبل شهور قليلة ، ولا أمام العمارة التى يسكن فيها سيارة فخمة ، ولا فى البنوك أرصدة ضخمة ، ولكنك لو فتحت أية صحيفة أو أية مجلة فى أى مكان فى العالم فسوف تجد صورته واسمه ..

هذا إنسان لا ينطبق عليه ما يؤمن به كثير من زملائك بأنه «عندك قرش تساوى قرش» ، فالذى عنده أغلى من أى قيمة مادية ، وهو ما أطالبك أنت وزملاءك بالتأمل فيه طويلا ..

الحياة يا ولدى ليست الفلوس والسيارات والعمارات والعزب والمجوهرات .. الحياة ليست السباق الرهيب لجمع المال والاستناد إلى أرصدته بحجة تأمين المستقبل ..

الحياة يا ولدى هى القيمة التى تضيفها إلى البشرية بفكرك وإبداعك وإلهامك وصدقك وإخلاصك وإيمانك وأخلاقك ، كم من أفراد توالوا على مر الزمن وجمعوا الأرصدة واقتنوا العمارات والأراضى والمجوهرات وأفخم الرياش .. ولكن من يذكرهم فى التاريخ الإنسانى ؟

من النادر أن تجد يا ولدى مليونيرًا حفر اسمه فى التاريخ لمجرد أنه امتلك الملايين ، بينما نجد مئات وآلاف الأسماء فى كل الدنيا لعباقرة فقراء مفكرين

وفنانين ومخترعين ومجددين ومبتكرين أثروا البشرية كلها بفكرهم وفنهم وأدبهم وعطائهم ..

ما يعطى للإنسان قيمة إذن ليس أن يسعى لإثراء نفسه ، ولكن لإثراء الآخرين ، وبقدر ما يتسع إثراؤه للآخرين ترتفع قيمته ويعلو قدره ويضيء اسمه فى جوانب العالم ..

حتى أبطال الرياضة الذين يحققون الأرقام القياسية التى تشبه المعجزة قد يبدو أنهم يثرون أنفسهم بينما الواقع أنهم يثرون المجتمع البشرى كله ، لأنهم يعرضون عليه أولا تفوقهم ، ويمتعونه أولا بتفوقهم ، ولو لم يكن هذا العرض الممتع أمام العالم ما كانت لهم فى صفحات التاريخ قيمة ..

إننى لا أريد أن أكتب لك هنا قصة نجيب محفوظ ؛ فلابد أنك قرأتها من بين مئات المقالات التى امتلأت بها الصحف والمجلات منذ أضيء اسمه فى شارع الخلود الذى يحمل جائزة نوبل ..

وكل الذى أرجوه منك عزيزى شريف وأنت تقرأ سطور هذه الحكاية أن تتوقف طويلاً أمام معانى العطاء والمثابرة والالتزام التى كان نجيب محفوظ نموذجًا لها .. ثم أضف إلى ذلك كله الأخلاق ..

اسأل أى واحد عن أخلاق نجيب محفوظ تجده يقول ما يشبه القصائد فى امتداحها ، وهذه يا ولدى سمة العلماء ، فالعلم والأخلاق يبدوان فى كثير من الأحيان وجهان لعملة واحدة ، وبقدر ما عرفت من علماء وقرأت عن سيرتهم فمن النادر أنى قرأت أو عرفت عالمًا متفوقًا فى علمه وعطائه وإبداعه وفكره ولا يتحلى بالأخلاق الكريمة الحميدة ..

عزيزى شريف :

عندما مات توفيق الحكيم فى العام الماضى وضع جثمانه على عربة مدفع وأحيط بعلم مصر ، وتم ترتيب جنازته على مستوى رؤساء الدول ..

ولقد عاش توفيق الحكيم دون أن يملك هو الآخر سيارة أو عمارة أو أرصدة فى البنوك ، ورغم هذا أعطى توفيق الحكيم وقدم للفكر ما لا يقدر بملايين الجنيهات وعشرات السيارات والعمارات ، وعندما مات توفيق الحكيم لم تستطع الدولة أن تعامله بغير مستوى رؤساء الدول ؛ لأنه كان بالفعل رئيسًا بارزًا فى دولة الفن والفكر والأدب .

وعندما دقت وكالات الأنباء خبر حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب ، وأبلغ الرئيس حسنى مبارك بالخبر ، فإن الرئيس قبل أن يفكر فى حفل تكريم أو أى ترتيب آخر وضع توقيعه على برقية أرسلها إلى نجيب محفوظ يقول فيها : «إن حصولكم على الجائزة اعتراف منصف بما أثرى به قلمكم الموهوب المجتمع العالمى من قيم جليلة وأهداف سامية تعزز إنسانية الإنسان وتضىء الطريق إلى الحب والإخاء والترابط فى عالم يموج بالصراعات المادية التى تهدد المثل العليا والقيم النبيلة ، إن هذا التكريم الذى يحدث لأول مرة لأديب ومفكر مصرى هو تكريم لمصر التى أعطيتها ثمار فكرك ونبض قلمك وأجزلت لها العطاء».

عزيزى شريف :

وفى آخر سطر كتبه الرئيس حسنى مبارك لنجيب محفوظ قال له فيه : «لك كل تحياتى وتقديرى واحترامى» .

رئيس الدولة يكتب لمواطن بسيط ويقول له «لك احترامى» . أليست هذه هى القيمة المعنوية التى هى أكبر من كل قيمة مادية؟

حتى لا ننسى ، نعم الأوبرا

عزيزى شريف :

من الملاحظات التى يمكنك أن تلحظها فى الحياة تأثر الإنسان فى سلوكه وتصرفاته وطريقة كلامه بعنصرين أساسيين : الملابس والمكان ، فأنت بالجلباب لك سلوك مختلف غيرك بالبدلة ، وفى المقهى البلدى فإن الزبون له أسلوب مختلف فى السلوكيات غير أسلوبه وهو يجلس فى قاعة فندق جميل يشرب فنجان الشاى على موسيقى عازف بيانو ..

وحتى ١٢ أو ربما عشر سنوات مضت كانت دور السينما تهتم بنظافتها وجمالها والأبسطة التى تفرشها عند مداخل أبوابها وعلى طول درجات السلالم ، وكان تكييف الهواء له صوت ناعم أشبه بالموسيقى الحالمة ، وكنا سعداء ونحن نذهب إلى سهرة السينما ، بل لا أبالغ إذا قلت لك إننا كنا نرتدى أفخر ما لدينا من ثياب استعدادًا لسهرة السينما ، وكان يمكنك أن تلاحظ أن المتفرجين يتبادلون الكلمات همسا ، وإذا حدث أن ارتفع صوت أحدهم بطريق الخطأ التفت إليه باقى المتفرجين بعيون تصيبه نظراتها بالخجل والسكتة الصوتية !

لا أعرف ما الذى حدث لدور السينما ؟ ولا أكتمك سرًّا إذا قلت لك أننى لم أدخل سينما منذ أكثر من عشر سنوات ، بعد أن سادها إهمال أصحابها ، فاختلف المكان واختلف سلوك المشاهدين ، وأصبح من النادر أن يفكر زوج

وزوجته فى قضاء سهرة سينمائية ، وإذا حدث فلا أحد يفكر فى الملابس التى يرتديها ، ولهذا فإنك لو نظرت إلى متفرجى إحدى دور السينما وهم يخرجون منها عند منتصف الليل ، تعجب لهذا الكرنفال العجيب من الملابس التى تشير إلى عدم اعتناء أصحابها باختيارها ، هذا فى الوقت الذى كنت تشاهد فيه متفرجى دور السينما قديمًا وهم يخرجون منها ليلاً ، الرجل بالبدلة الأنيقة والمرأة بأجمل الثياب والفراء والعطور ..

هل لهذا اختلف سلوك جيل رواد السينما اليوم عن سلوك رواد السينما قديمًا ؟

لابد أن للمكان والملابس – كما قلت – تأثيرًا فى ذلك ..

ولو أنك نظرت إلى مسارحنا فسوف يفجعك سوء حالها ، هذا رغم ارتفاع أسعار التذاكر التى وصلت فى بعض المسارح إلى ٥٠ جنيها للتذكرة الواحدة !

ورغم ذلك فلو تأملت الكراسى تجد أنها أشبه بكراسى المقاهى البلدية وقد تلاصقت بطريقة استفزازية تجعل كل متفرج كأنه يجلس على ركبة الذى إلى جواره ، والجدران أشبه بالأطلال ، وأرضية المسرح كما لو أنها لم تمتد إليها يد لتنظفها لأكثر من شهر ، وغير ذلك رائحة السجائر التى تحس أن لها رائحة قديمة متراكمة من متفرجى حفلات سابقة خرجوا وذهبوا إلى بيوتهم ومضى على خروجهم أكثر من ليلة ، لكن بسبب عدم التهوية تراكمت روائح سجائرهم وبقيت فى مكانها تزكم الرواد الجدد ، ويضيفون عليها الجديد من دخانهم حتى يصبح المكان يومًا معبأ برائحة السم !

ثم إن خشبة المسرح نفسها لا تختلف كثيرًا عن صالة المسرح ، وإذا أتيح لك أن تدخل خلف الكواليس وتشهد الغرف التى يخلع فيها الممثلون ملابسهم ويرتدون ملابس التمثيل هالك المنظر المرعب الذى يعيشون فيه ..

فهل يمكن أن تعجب بعد ذلك لتدهور المسرح والسينما وارتفاع الصراخ فى جنبات القاعة وقرقزة اللب والسودانى وغير ذلك من تعليقات نابية تنافس الإسقاطات الجنسية التى هبط إليها الحوار فوق المسرح ؟

لماذا أقول لك ذلك ؟

إننى كنت أريد أن أبدأ هذه الرسالة بعبارة أقول لك فيها : عزيزى شريف ، ألف مبروك على دار الأوبرا الجديدة ، لكننى خشيت أن تكون من أصحاب هذه الآراء التى ترى فى الأوبرا الجديدة طبقية بعيدة عن حياتنا ، وفنا يتبادل أبطاله الغناء بطريقة غير واقعية وغير مفهومة ..

أردت ، على خلاف ما كنت أفكر فيه ، أن أبدأ بالحديث إليك عن المستوى الهابط الذى وصلنا إليه فنيًا من حيث المكان ، من حيث الشكل ، دور السينما والمسارح ، لكى تعرف أنه إذا كان هناك أسباب لهبوط المستوى الفنى الذى نعانى منه فأحد هذه الأسباب هبوط المكان الذى تؤدى فيه مختلف الفنون ..

لعل بعد ذلك أقول لك إن أهم قيمة للأوبرا الجديدة هى الاختلاف فى المكان وفى الشكل ..

وفى كل العالم ليس هناك مكان يطلق عليه «أوبرا» ولا تكون له مواصفات خاصة من النظافة والرقى والعناية والشياكة والأناقة ..

ولو أتيح لك أن تسافر إلى الخارج وتحضر عرضًا فى أوبرا فينا أو أوبرا موسكو أو برلين أو لندن أو واشنطن ، فسوف يدهشك أولاً منظر احتفاء المتفرج بنفسه وهو يحضر هذا العرض ..

سوف يدهشك مثلاً أن معظم الزوار من الرجال يرتدون البدلات السوداء المعروفة باسم السموكنج ، والبابيون الأسود ..

ولقد فكرت شخصيًا فى هذه البدلات وسألت نفسى : لماذا ؟

لماذا إصرارهم فى بعض الحفلات على ضرورة أن يكون الرجل مرتديا هذه البدلة ؟

ووجدت الجواب فى الظاهرة التى بدأت رسالتى بالحديث عنها ، ظاهرة الملابس وتأثيرها على السلوك ، فهم فكروا فى أسلوب أعلى من البدلات العادية ،

أسلوب متميز غير مألوف لا يرتديه الرجال فى حياتهم العادية المألوفة فى النهار أو أثناء العمل أو فى المكاتب ، إن من السهل أن تجد رجلاً يرتدى بدلة أنيقة فى كل هذه الأماكن ، ولكن من المستحيل أن يذهب هذا الرجل إلى مكتبه مرتديا بدلة سموكنج ، ذلك أنهم أرادوا أن يخصصوا لهذه الحفلات الخاصة مثل الأوبرا زيًّا خاصًّا ، زيًّا يشعر من يرتديه بأنه فى ظروف خاصة غير عادية أو مألوفة ، وبالتالى فإن سلوكه لابد أن يكون مختلفًا ، وتصرفاته لابد أن ترتفع إلى المستوى العالى الذى تعكسه البدلة السوداء السموكنج التى يرتديها .

هل عرفت السر إذن فى هذه البدلات ؟

بل هل عرفت قيمة الأوبرا ؟

قيمة الأوبرا إذن أنها تمثل الجمال والأناقة ، الجمال والأناقة ليس فى الملبس فقط ، وإنما فى الفن الذى يؤدى فيها ، فأنت لا تذهب إلى الأوبرا لترى فنا عاديا ، مطربًا عاديًّا أو منلوجستًا يردد النكات ، أو مسرحية هابطة يتبادل أبطالها الإشارات الجنسية بالألفاظ والإيحاءات ..

متفرج الأوبرا يعرف أن الأوبرا تعنى الارتفاع والسمو والقمة ، وعندما كان عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش يحلمان كمطربين فى الأفلام التى يمثلانها بالوصول إلى القمة ، فقد كان غناؤهما فى الأوبرا يمثل هذه القمة الحلم ، ولعلى قد سبق أن قلت إنه إذا كانت العطور تبدأ من ماء الكولونيا ثم اللوسيون ثم ماء التواليت ، ثم البارفان ، فإن الأوبرا هى «الأسانس» ، الذى يمثل درجة أعلى من «البارفان» .

وتاريخيًّا فقد عرف العالم الأوبرا عام ١٦٠٠ عندما قررت مجموعة من الشبان الفنانين الموسيقيين فى فلورنسا فى تقديم عمل فنى جديد على أعلى مستوى يختلف عن أنواع الفنون الأخرى ، وينعشون به الطريقة التى ورثوها عن اليونانيين القدماء فى كتابة الموسيقى والمسرحيات .

كانت كلمة OPUS وهى كلمة لاتينية تعنى «عملاً» .. وهداهم تفكيرهم إلى أن يقدموا مجموعة أعمال مشتركة وليس عملاً واحدًا .. الموسيقى مع الباليه مع الغناء مع التمثيل مع الديكور مع الكورال ، خليط من الأعمال كل منها فى حد ذاته فن وحده ، لكنها معا مجموعة أعمال أى OPERA وهى الكلمة اللاتينية التى تعنى جمع OPUS .

ولم تكن الموسيقى السيمفونية قد عرفت فى ذلك الوقت ، ولكن منذ بدأ التفكير فى الأوبرا عرف العالم السيمفونيات التى توالى وتتابع العباقرة الموسيقيون الذين وضعوا ألحانها وماتوا ، وبقيت هذه الألحان أو السيمفونيات أو القطع الموسيقية الجميلة نبعًا دائمًا ترتوى منه البشرية متعة وإحساسًا وعلًوا ..

ولقد كان من مفاخر مصر أنها كانت أول بلد فى الشرق الأوسط تقام فيه دار أوبرا ، وهى التى أقامها الخديو إسماعيل وافتتحها فى أول نوفمبر عام ١٨٦٩ ، ومن أجلها تم الاتفاق مع الموسيقار الكبير فردى لوضع موسيقى أوبرا عايدة التى تم استلهام قصتها من التاريخ المصرى الفرعونى ، وقد وضع فكرة هذه الأوبرا عالم الآثار الفرنسى الشهير مريت الذى أطلق اسمه على أحد شوارع وسط القاهرة .

ولقد دخلت أوبرا عايدة متحف الخلود ، وأصبحت واحدة من مشاهير الأعمال الفنية العظيمة ..

ولكن ليس معنى الأوبرا ضرورة أن تقدم ما هو إيطالى ، أو ما يؤدى بطريقة الغناء الأوبرالى التى يرى البعض أنها طريقة غير واقعية ، وهى بالفعل كذلك .. فليس فى حياتنا من يتحاور مع الآخرين بهذه الطريقة الغنائية ، كما أنك تستطيع أن تقول إنه ليس فى حياتنا أيضا من يسير فى الشارع ويغنى أغنية تنساب موسيقاها وألحانها بنفس الطريقة التى يغنى بها المطربون فى الأفلام ..

فالغناء أصلا طريقة غير مألوفة فى الحياة ، ولكنه فن يمتع الحواس ، وصوره مختلفة عن الغناء الخفيف إلى الأوبرالى ..

ولكن الفكرة من الأوبرا ، وهذا أعظم ما أراه فيها ، إنها الفرصة أو الحافز لرفع مستوى أنواع الفنون المختلفة التى هبطت فى بلادنا أو يئس أصحابها من محاولة تقديم شيء جميل ..

ولقد كنت قبل الأوبرا أعذر الذين لا يجدون الدافع لكى يجيدوا فى أنواع الفنون التى يقدمونها ، بسبب عدم وجود المكان الذى يمكن أن يقدم فيه أى عمل جيد يقدمونه ، ويكون رواد هذا المكان على مستوى لائق من السلوكيات ، مع الأوبرا سوف يجد المؤلف ما يدفعه إلى التفانى فى تقديم الأفضل ، ونفس الشيء مع الملحن والمغنى والممثل وفنان الديكور والمايسترو والموسيقار وكل الذين يعملون فى أنواع الفنون المختلفة ..

ولو أنك تذكرت متى هبط الفن فى مصر لأمكنك أن تجد رباطًا بين احتراق دار الأوبرا القديمة فى عام ١٩٧١ وهذا الهبوط الذى حدث خلال ١٧ سنة ..

وليس معنى إنشاء الأوبرا أننا سوف نرتفع فورًا بمستوى الفن الذى تدهور فسوف يحتاج هذا إلى وقت ، ولكن يكفى إحساسنا بأننا نصعد بدلا من أن نهبط ، ويكفى الإحساس بأنك تشم هواء نقيًا فى مكان جميل صحى بدلاً من الهواء الفاسد الذى كنا نشمه ونبتلعه فى دور السينما والمسارح ..

يكفى تطلع كل فنان اليوم فى مصر إلى أن يقدم عملاً فنيًا فى دار الأوبرا .. ومحاولته لتحقيق ذلك أن يقدم فنًا جيدًا راقيًا عاليا ..

عزيزى شريف : مبروك عليك دار الأوبرا الجديدة ، ولعلنا نلتقى يومًا فى إحدى حفلاتها.

ما الذى تغير فى المجتمع ؟

عزيزى شريف :

استوقفتنى فى آخر خطاباتك جملة كنت تقولها عرضًا : ماذا حدث فى المجتمع ؟ ما الذى جرى فيه ؟ والذى أعرفه أنك مازلت فى سن أقل من الثلاثين ، ومع ذلك فأنت تسأل : ماذا حدث للمجتمع ، وماذا جرى فيه ؟ مع أن أهم ما جرى فى هذا المجتمع لا يستطيع أن يلحظه بسهولة وبمرارة غير الذين عبروا خط الخمسين ، وأصبح لهم زمانان ، زمان قديم ينتمون إليه فى طفولتهم وبعض سنى شبابهم ، وزمان حديث يعيشون فيه ، عذابهم هو الماضى بكل صوره وألوانه وتنوعاته ، وهم فى كثير من الحالات يجترون هذا الماضى وهم يقارنونه بما يجرى اليوم ويحدث ..

ما الذى جرى فى المجتمع ؟ إنه سؤال يذكرنى بسؤال وجهته إلى إحدى المذيعات عن أهم القيم التى تغيرت فى مصر ، وماذا عن المستقبل ؟ فكرت فى هذا السؤال مخلصًا وانتهيت إلى أن هناك عديدًا من القيم تغيرت ، إلا أننى أرى أن أهم قيمة أصابها التغير هى علاقة المصرى بالعمل ، وفى رأيى أن تغير هذه القيمة هو الذى ألقى بظلاله وتأثيراته على باقى القيم والنواحى وأوجه الحياة ..

سوف أعود بك إلى سنوات طفولتى التى عشتها فى مدينة صغيرة اسمها دمياط ، لم تكن مدينة بمعنى الكلمة ، لكنها أيضا لم تكن قرية ، فى هذه السنوات

فى النصف الثانى من الثلاثينات كانت لمبة الجاز هى العيون التى نرى بها فى الظلام ، فلم تدخل الكهرباء دمياط إلا فى بداية الأربعينات ، ليس هذا هو المهم ، وإنما الذى أريد أن أحدثك عنه هو دوامة العمل التى كنت أحس أننى أعيش فيها ، لم أكن فى هذا السن الصغيرة قد قرأت عن النحل ومملكة النحل ، وكيف أن كل نحلة لها عمل تقوم به ، حتى صغار النحل الذى يفقس من البيض ولا يستطيع الطيران ومغادرة المنحل ، فقد اكتشفوا أنه يعمل «ساعيًا» .. فهذه الصغار من النحل تقف على أبواب المنحل منتظرة وصول النحل الكبير حاملاً رحيق الزهور وإفرازاته من العسل ، ويقوم بأخذ هذا الرحيق منه من على الباب وإدخاله إلى داخل «المنحل» تاركًا الفرصة للكبار لإستغلال الوقت وتوفير مشوار الدخول ووضع العسل فى مكانه ، فى مملكة النحل ليس هناك عاطل ، لا كبير ولا صغير ، وكذلك كنا فى دمياط ، لا أكاد أذكر شخصًا لا يعمل ، ولكن لم يكن المهم هو ارتباط هذا الشخص بالعمل وإنما حبه وإخلاصه وغرامه بهذا العمل الذى يقوم به مهما كان نوعه ، أهم من العمل حب العمل ، ولهذا كان الجميع يجيدون وينتجون ويحققون كسبًا من هذا العمل ، ولم يكن الكبار وحدهم الذين يعملون ، الصغار أيضًا كانوا يعملون ، وكان يمكن تقسيم هؤلاء الصغار إلى قسمين : قسم يذهب إلى المدرسة ويعتبر التعليم نوعًا من العمل الذى عليه أن ينجح فيه ، ونوع آخر يذهب إلى الورش المختلفة ، ورش الموبيليا والأحذية والألبان والحلويات ومضارب الأرز ومع صيادى السمك وصناعة السفن ، إلخ .

وكان هناك من يجمع بين الاثنين : بين المدرسة والعمل ، وأذكر أن تعرضت مدرستا دمياط الابتدائية والثانوية – وكانتا فى مبنى واحد – لقرار بالإغلاق بسبب المظاهرات الوطنية التى كنا نطالب فيها بجلاء الإنجليز ، ووجدت نفسى عاطلاً بلا مدرسة ولا أى شىء آخر ، ودون أن يجبرنى أحد أو يطلب منى أحد «نزلت» إلى معمل حلويات أقاربى فى دمياط ، ووقفت مثل أى عامل أمام «كانون» المشبك وصوانى البسبوسة واللذيذة وجوز الهند ، وبعد أكثر من

أربعة أسابيع أعيد فتح المدرسة فتركت المعمل وعدت إلى المدرسة ، ولم تتوقف الدراسة فى أى وقت إلا وجدت نفسى أعود إلى المعمل لأشارك العمال عملهم ، إننى أسأل اليوم نفسى : ما الذى جعلنى أفعل ذلك ؟ هل هو حب التقليد ؟ ربما ، ولكنه المناخ ، الجو الذى كنا نشم فيه أن اليد البطالة نجسة كما يقول المثل ، وأنه مهما ارتفع الإنسان فإن قيمته هى عمله ، وأنه مهما كان ملبسه أو مظهره فالمهم هو ما يعمل ، ولهذا كان الدمياطى القديم لا يهمه ما يلبس أثناء العمل ، لأنه يعرف أنه ليس هناك من يقلل من شأنه إذا وجده يعمل ، وإنما التحقير الحقيقى هو ألا يعمل ، ولم تكن دمياط وحدها على ما أعتقد هى التى تتميز بهذه الميزة وإن تفوقت فى مجالات العمل العديدة التى كانت تمارسها ، وإنما كانت مصر كلها تشارك فى هذه الميزة ، كان الفلاح المصرى – وكان أكثر من ستين فى المائة من سكان مصر من الفلاحين – يبدأ يومه قبل أذان الفجر ، ومن النادر أن يبقى فلاح فى بيته بعد صلاة الفجر إلا إذا كان مريضًا ، ولم يكن هذا هو المهم ، وإنما كان الأهم هو السطور الواضحة التى تستطيع أن تقرأها على وجه كل فلاح وهو ذاهب إلى قريته ، حب العمل ، الإخلاص فيه ، ولهذا كان للخضرة يومها لون آخر ، خضرة عفية تنطق بالقوة والصحة والعافية ، ولو نظرت إلى المصرى وتاريخه لوجدت أنه من الذين يعشقون العمل ، ولا يمكن تصور أن أجدادنا المصريين القدماء قد فعلوا كل الذى فعلوه من معجزات إلا بالحب ، حب العمل إلى درجة العبادة .. وعندما دخل الدين الإسلامى إلى مصر لم تكن دعوته إلى التوحيد وعبادة الله إلا دعوة إلى العمل ؛ باعتبار أن حركة الحياة أساسها العمل ، وأن اليد العليا التى تنتج وتكسب وتستطيع العطاء خير من اليد السفلى التى تنتظر من يعطيها ..

وكان من عادة المصرى ومن المعروف عنه أنه يحب زيادة موارده عن طريق المزيد من العمل ، ولهذا كان الكثيرون من الموظفين يعملون فى أكثر من عمل لكى يزيدوا دخولهم ، من العمل ، وكل عمل حركة ، وكل حركة بركة وإنتاج ، وكنا بالفعل ننتج ما نريد وأكثر ، لم يحدث أن استوردنا قديمًا أردبًا

من القمح ولا فرخة مذبوحة أو سمكة مجمدة ! صحيح أن عددنا زاد ، وكان مفروضًا أن يزداد إنتاجنا بسبب هذه الزيادة فى السكان ، ولكن ضعف إنتاجنا ونقص ..

وهى ظاهرة غريبة لابد أن نتوقف أمامها ونسأل أنفسنا : لماذا ؟ نعم لماذا عندما كنا عشرين مليونًا كنا ننتج أكثر مما نحتاج إليه ، ولكن عندما تضاعف عددنا أصبحنا نمد أيدينا لأبواب الاستيراد ، نكمل احتياجاتنا منها بعد أن فشلنا فى إنتاج احتياجاتنا ، مع أن المفروض أن هذه الزيادة السكانية كان يجب أن تكون خيرًا وبركة باعتبار أنها زيادة فى قدرات العمل والإنتاج ، ولكن المؤسف أن هذه الزيادة جاءت فى الوقت الذى تقطعت فيه روابط الحب بين المصرى والعمل ، ابتداء من الفلاح إلى الموظف إلى العامل إلى الكمسارى إلى سائق التاكسى إلى المكوجى إلى السباك إلى المحامى ، وحتى إلى الطالب ، وأقول الطالب لأننى أصبحت أرى كل الطلبة يتسابقون على دخول الجامعة بمفهوم واحد خفى : أن يتخرجوا لكيلا يعملوا ، أن يحصلوا على شهادة يجلسون بها فوق مكتب ، أحلامهم فى غرفة مكتب وساع على الباب ، لا أحد يحلم بالتعب والجهد ، وكل الخريجين فى انتظار خطاب القوى العاملة مهما تأخر ، لأنه ورث عدم الإقبال على العمل ، ضاع مفهوم العمل ، أصبح كل واحد يريد زيادة موارده ولكن بدون أن يعمل ، ادخل أى موقع عمل تجد أن القلة فيه هى التى تعمل وتنتج ومازالت فى داخلها نيران الحب للعمل الذى تقوم به ، والأكثرية الغالبة هى التى تضيع الوقت بلا عمل ، وتطالب بالعلاوات والحوافز والترقيات ودخول اللجان المختلفة التى لا عمل حقيقى فيها غير التظاهر بالعمل ، وبعد أن كنا نعمل أصبحنا نتظاهر بالعمل ، وبعد أن كنا نحب العمل أصبحنا نكره العمل ، ولو نظرت إلى وجوه الذين يذهبون إلى أعمالهم فى الصباح لوجدت أن أكثرها يبدو كما لو أن أصحابها بدءوا يومهم بابتلاع شربة زيت !

أين المصريون الذين كانوا يتسابقون فى فرحة وهم ذاهبون إلى العمل كأنهم ذاهبون إلى الحبيب الذى يعشقونه ؟ وبسبب تدهور قيمة العمل تدهورت قيم كثيرة ؛ ولكنها بدأت جميعًا من تدهور علاقة المصرى بالعمل ، لقد انخفض الإنتاج ، وزاد السكان وزاد الاستهلاك ، وبدأت الأكثرية تتسابق للحصول على القليل المتاح ، وجاءت موجات المادية لتعمى الكثيرين عن زيادة دخولهم من العمل ، ولهذا تحولوا إلى سماسرة ، أغلبية الذين يعملون فى المحاماة سماسرة ، وفى التجارة سماسرة ، وفى التدريس سماسرة ، وفى كثير من الحرف سماسرة ، حتى فى الفن راجت السمسرة ، هل كان يمكن أن يحدث هذا فى مجال العمل دون أن يلقى ظلاله وتأثيراته على الأخلاق والسلوكيات وكل القيم الأخرى ؟

فإذا سألتنى : ما الذى تغير فى المجتمع ؟ أقول لك على الفور : هذه العلاقة المتدهورة بين المصرى والعمل ، وإذا سألتنى عن أهم القيم التى تدهورت ، أقول لك : قيمة العمل كمورد للدخل عند المصرى ..

أما أسباب ذلك فالحديث فيها يطول ، وأنا أشعر أننى أثقلت عليك ونحن فى بداية عام جديد ، وقد كنت أريد الحديث إليك عن هذا العام ، ولكنك أثرت خواطرى بملاحظتك العابرة التى وردت فى خطابك السابق ، طبعا لا يمنعنى ذلك أن أهنئك بالعام الجديد ، وأن أتمنى لك ولغيرك ولكل جيلك الصاعد أن تستردوا ما ضاع ، أن تعيدوا للمصرى حبه الكبير لعمله ، عشقه لعمله ، لو فعلتم ذلك فصدقنى أنكم سوف تحلون كل مشاكل مصر .

أعترف بأن جيلنا هو السبب في مشاكل جيلكم

عزيزى شريف :

هل تتصور أننى سأجادلك كثيرًا فيما تضمنته رسالتك الأخيرة لى ، لعلك سوف تفاجأ إذا قلت لك إننى أتفق معك فى كثير مما قلته بل لعلى سوف أذهب إلى أبعد من ذلك كله وأعترف لك بأننى من الذين يؤمنون فعلاً بأن جيلنا هو السبب فى مشاكل جيلكم ، فأنتم لم تبدءوا من فراغ وإنما نموتم فى الأرض التى أعددناها لكم ، فإذا كان هناك ما تشكو منه وما نتهمكم به فلأننا فى كثير منه السبب ..

لقد كانت البداية ما جاء فى رسالتى الأخيرة إليك ردًّا على سؤال وجهته لى تقول لى فيه : ما الذى تغير فى المجتمع ، وقد قلت ردًّا على ذلك أهم ما تغير فى رأيى هو علاقة الإنسان بالعمل ، فأنا أذكر فى طفولتى كيف أن كل المجتمع الذى تربيت فيه فى مدينة دمياط كان يقدس العمل إيمانًا بأن العمل هو الوجه الآخر للعبادة ، ذلك أن العبادة كما تعرف هى الوظيفة الأساسية للإنسان ؛ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، ولكن العبادة ليست إقامة الصلاة والصيام والزكاة والحج فقط ، بل بجانب ذلك العمل ، أجمل صلاة هى التى يقوم بها الإنسان الذى يعمل ، إنه يترك عمله ومسئولياته ومشغولياته لتأكيد صِلَتِه بالخالق ، وهذا هو المعنى العظيم للصلاة ، أن يتوازن الإنسان في حياته

ويذكر بجانب مشغوليات الدنيا صلته بربه وخالقه واحتياجات الحياة الأبدية التى يعيش فيها فى الآخرة ، كان مدرس الدين فى السنة الرابعة الابتدائية يقول لنا إن كل إنسان يسعى إلى تأمين نفسه ، يتعلم لكى يستفيد بعلمه ، يجاهد حتى يجد عملاً يأمن إلى أن يعيش على دخله منه ، يكسب لكى يحقق مطالبه لغده ويوفر جزءا لغده ، يبنى لكى يضمن المأوى والسكن ولا يعيش شريدا ، إنها سلسلة متصلة من محاولة تأمين نفسه ، يتزوج لكى يؤمن الشريك الذى يعاونه فى تلبية مطالبه الجنسية والحياة السوية ، ينجب لكى يؤمن اسمه ويحمل أولاده هذا الاسم وهم صغار ويساعدونه على حمله عندما يكبر ويهرم ويصبح غير قادر على السير ، سلسلة متصلة من تأمين الإنسان لنفسه ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يحاول كل منكم تأمين مستقبله فى حياته الأطول والأعدل والأفضل ، إن حياة الدنيا مهما طالت قصيرة بالنسبة لحياة الآخرة ، مجرد لمحة خاطفة ، وإذا كنا نعطيها كل هذا الجهد لتأمين أنفسنا خلال حياتنا فيها ، فلماذا لا ننظر أيضًا إلى حياة الآخرة ونؤمن أنفسنا فيها ، إننا فى دنيانا نستطيع أن نبنى قصورًا كثيرة فى الجنة نسكنها ونقيم فيها لو أننا أثناء عملنا لدنيانا راعينا حق الله ..

كان مدرس الدين يقول لنا : إن ذلك ليس معناه ألا نعمل ونتفرغ للعبادة ، لأنك لو فعلت هذا لن تستطيع أن تقيم أحكام الإسلام ، ومنها الزكاة ، وإلا من أين ستكسب وكيف إذا لم يكن لك عمل ، وما دام ليس لك كسب فكيف ستقوم بواجبات الزكاة ..

وهكذا فإننى لم أستطع أن أنسى أهمية العمل للإنسان ، ولا أهمية العبادة ، وكلما امتد بى العمر وجدت الرباط قويًا بين الاثنين العبادة والعمل ، وقد كانت علاقة المصرى كما سبق وقلت لك بالعمل علاقة قوية وطيدة ، كان الفلاح المصرى يسعى لعمله من قبل أذان الفجر ، وكان العامل المصرى يجرى إلى عمله بلهفة وفرحة ..

وفى مواجهة زيادة المطالب التى يواجهها المصرى كان أول ما يخطر فى فكره وباله هو أن يضاعف عمله لكى يكسب أكثر ، ولكن كما قلت لك فى رسالتى السابقة أصبحت أحس بأن هذه السمة وهذه الرابطة وهذه العلاقة الجوهرية بين المصرى والعمل قد تغيرت ، نعم هناك ملايين يعملون فى كل مكان ، فى المصانع والحقول ومواقع الخدمات ، إلخ ، ولكن بغير إحساس بالحب أو الإخلاص أو الإتقان ، ولهذا كثرت الشكوى ، وأكثر من شكوى الأفراد شكوى الوطن كله واضطرارنا إلى استيراد معظم احتياجاتنا الغذائية من الخارج ورهن أقدارنا فى يد الغير ..

إنك فى رسالتك التى أرسلتها إلى ردًّا على ما قلته لك تسألنى فى عصبية : من المسئول يا أستاذ عن كل هذا ؟ أليس جيلكم ؟

وأنا لم أقل أبدًا إنكم السبب فيما حدث ، بل أسارع وأقول إننا بالفعل نحن السبب ..

كنا السبب يوم أسلمنا للحكومة تولى كل شىء نيابة عنا ، بدعوى أن هذه هى الاشتراكية ، الحكومة هى التى تربى والتى تعلم والتى تعين والتى ترقى والتى تعالج ، والتى تصرف التأمينات على الحياة ، الحكومة هى التى تبنى والتى تحدد الإيجارات والتسعيرة الجبرية لكل سلعة ، الحكومة هى التى تفكر نيابة عن الإنسان وهى التى تخطط لحاضره ومستقبله ، الحكومة هى التى تحدد للفلاح ما يزرعه وتصرف له البذور والسماد ، وتشترى منه المحصول بالسعر الذى تحدده ، الحكومة هى التى تحدد سياسة كل الناس وتجمعهم بكل متناقضاتهم فى حزب واحد ، وتذيب ما بينهم من فوارق ثقافية أو فكرية ، تركنا كل شىء للحكومة ، وكان هذا خطأ من الاثنين : من الذين قادونا باسم الحكومة ومنا نحن الذين استسهلنا الحياة فى كنف الحكومة ، نأكل من يديها ونتعلم من كلماتها ونردد ما نقوله ونسير فى الطريق الذى تحدده لنا ..

وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا موت الحافز الفردى ، وتقوقع الشرفاء ، وتسلق المنتفعين ، وزيادة أعداد الكسالى ، والكسل مرض ينتقل بالعدوى وبسرعة بالغة ، وجاءت القوانين الحكومية لتساوى بين من يعمل ومن لا يعمل ، بل ووصل الأمر إلى حد تعرض الذين يعملون بسبب وقوعهم فى الأخطاء إلى الجزاءات ، وأصبح هما من هموم الرياسة فى بعض مواقع العمل هو كيفية كسب رضا الذين لا يعملون ، لأنهم متفرغون للشكوى والشكاوى ، أما الذين يعملون فلا وقت لديهم ولا مشاكل منهم ، المشاكل كبيرة وكثيرة من الذين لا يعملون ، الترقيات للذين لا يعملون ، المكافآت للذين لا يعملون ، أما الجزاءات فعلى الذين يعملون .. !

ولأن الحكومة كانت فى حاجة إلى موارد تصرف منها على المطالب والأعباء الكثيرة التى تحمل بها ظهر القطاع العام ، وبدلاً من أن يساعد هذا القطاع العام الحكومة بما يحققه من مكاسب ، أصبح فى بعض الأحيان عبئا عليها بسبب ما يحققه من خسائر ، وساد إحساس بأن هذا «القطاع العام» بروز جديد فى الدولة ليس له صاحب وأنه من حق مديريه وعامليه أن يغرفوا منه ما يريدون !

عزيزى شريف :

هذه بعض أخطاء جيلى أعترف بها بصوت مسموع ، وإذا كنت تسمع من بعضنا الضيق بما حدث فليس معنى هذا تبرئتنا مما حدث ولكن رغبتنا فى أن يقطن جيلكم ويعيد إصلاح ما أفسدناه إذا لم يعطنا الزمن فرصة إصلاحه .

وليس هذا تهربا من المسئوليات التى على جيلنا أن يقوم بها فليس هناك من هو أكثر من جيلى شعورًا بالعذاب والألم خصوصًا أن المشاكل تبدو معقدة وأصعب ما فيها أنه لا يمكن حل مشكلة بعيدًا عن المشاكل الأخرى ، مشكلة التعليم لها علاقة بعديد من المشاكل الأخرى ، وقضية المخدرات لا يمكن

مواجهتها دون حل مشاكل المدارس المكدسة والتربية فى المنزل والفراغ عند الشباب ، إلخ ، فعديد من المشاكل يجب أن نحلها فى وقت واحد ، وهو قدرك أن ترث بعض هذه المشاكل وإن كنت واثقًا أنك في جيلك سيكون أمامك قدرة أكثر على الحل ، لأنكم لن تضيعوا وقتًا طويلاً فى اكتشاف الصواب من الخطأ ، وإذا كنت تسمع عن أخطاء ننسبها إليكم فليس هذا مسئوليتكم وحدكم وإنما مسئوليتنا أيضًا قبلكم ، لك كل أمنياتى وإلى أن نلتقى فى رسالة جديدة بإذن الله.

أنتم القادرون على التغيير

عزيزى شريف :

فى كل مرة أسافر فيها ، إلى الخارج أطيل النظر فى مختلف القوى العاملة ، سائق التاكسى ، والبائع فى المحل ، وكمسارى الأتوبيس ، وموظف شركة الطيران ، وعاملة الأسانسير ، وعارضات الأزياء وأدوات التجميل فى المحلات الكبيرة ، والسيدة الجالسة إلى الكيس أو الخزينة في المطاعم العديدة المعروفة باسم «اخدم نفسك» وغيرهم وغيرهم ، أحاول وأنا أنظر إليهم أن أعرف كيف يعملون ، وماذا يحملون من شهادات وخبرات ؟

ولعلى بداية أوصيك عند السفر إلى الخارج أن توفق بين نظرتين أساسيتين لهذه المجتمعات الغربية التى تزورها ، نظرتك إلى هذا المجتمع فى أيام إجازات آخر الأسبوع يومى السبت والأحد ، ثم نظرتك إلى هذا المجتمع فى خلال أيام العمل طوال الأسبوع ، إن كثيرين من الشباب بكل أسف يخلطون ويخطئون ، يحكمون على هذه المجتمعات إما من خلال صورة الحياة التى يرونها فى خلال أيام أجازة آخر الأسبوع ، أو من خلال الظواهر الشاذة المنحرفة لبعض الشباب أو الشابات ، ونحن بهذه النظرة القاصرة نخطئ الأحكام ونتصور أنه ما دام هناك بعض المنحرفين الظاهرين من الشواذ جنسيًّا وخلقيًّا وفكريًّا فلابد أن كل المجتمع بهذه الصورة ، وهو كما قلت لك قول خطأ ، فخلف الظواهر

السطحية التى تراها لهذه النماذج الشاذة أو لصور المرح والاحتفالات التى يقيمونها فى خلال ليلتى آخر الأسبوع يوجد ملايين كثيرة يعملون وينتجون ويعرقون ويبذلون الجهد الكبير ، وإلا فمن هو الذى حقق هذا التقدم الذى حققته هذه البلاد ، ومن هو الذى يدير حركة التطور التى تستطيع أن تلمسها وتراها فى كل مرة تزور فيها الخارج .

هل هو من كوكب آخر ؟ أحيانا ما أسأل نفسى وأنا أحاول المقارنة بين ما يحدث هناك وما يحدث هنا فى مصر هذا السؤال ، ثم أجد أمامى نموذجًا متكررًا يلغى فكرة أننا كونان مختلفان ، أجد نموذج المصرى عندما يصل إلى هذه المجتمعات ويعمل هناك فى أى موقع ، وقد نافس أبناء المجتمعات نشاطهم وإخلاصهم وجدهم وجهدهم ، إذن فنحن وهم من طبيعة بشرية واحدة ، من طينة واحدة ، ولكن أهم الفوارق التى اكتشفتها تحطيمهم فكرة التفرقة بين البدلة الزرقاء والبدلة البيضاء أو السوداء ، بين بدلة العامل وبدلة خريج الجامعة ، بين من يعمل بيده ومن يجلس إلى مكتب ، الكل يبدو فى عيون الناس أنهم واحد ما داموا يعملون ، إن من الطبيعى أن تختلف أهداف الشباب وتعدد آمالهم ، لكننى فى مصر وجدت تقريبًا هدفًا واحدًا لكل شاب هو أن يدخل الجامعة ويتخرج منها طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا ، حتى لا أكون ظالمًا فسوف أقول إن هذا هو حلم كل شاب قبل أن يقف أمامه حاجز امتحان الثانوية العامة ويوزعه مكتب التنسيق ، لكن الجميع سواء منهم من حقق هدفه ودخل الطب أو الهندسة أو دخل أى كلية أخرى يتساوون فى الآمال : المكتب الذى يجلسون إليه ..

كل شاب يحلم بالمكتب ..

المكتب بصورته المعنوية ، ذلك أنه من كثرة أعداد الموظفين الذين تحملت الدولة تعيينهم ضاقت بعض الوزارات والمصالح بالذين يعملون فيها حتى لم يعد لكل منهم مكتب يمكن الجلوس إليه ، ومن ثم تحول المكتب فى نظر

الكثيرين إلى مجرد اسم يظهر فى كشف المرتبات ، فالمكتب هو المرتب ، والمرتب هو الأمل ..

فى نظرتى إلى شباب الخارج وجدت شيئًا مختلفًا ، شبابنا يتطلع إلى المرتب ، وشبابهم يتطلع إلى المكسب ، والفرق كبير بين الاثنين .. فمن يجرى وراء المرتب هدفه أن ينتظر الوظيفة ، أما من يطمع فى المكسب فإنه يلهث وراء تحقيقه ويبدأ فى سؤال نفسه كيف يحقق هذا المكسب ، وما هى دواعيه ، وما هى احتياجاته ولوازمه ، وهو لا يفكر فى ذلك من فراغ وإنما من حساب احتياجات السوق ، ولهذا تختلف وسائل وتعدد الطرق التى يسلكها الشباب الأجنبى ، الشهادة الجامعية ليست هدفًا سوى لمجموعة قليلة ، أما الأكثرية فهى تبحث عن الكسب ، وهو ما لا يتحقق بغير العمل ، ولهذا نجد كل سائقى التاكسى متعلمين ، وكل الكمسارية فى الأتوبيسات ، وكل الباعة ، وكل فئات العاملين المختلفين .

وأنا أقول متعلم بمعنى حاصل على شهادة ثانوية أو فنية أو حتى جامعية ، وقد وجدت أن مثل هذه الشهادات فى مصر تقف عقبة أمام توافر فرص العمل لحامليها ، لأن المصرى المتعلم حامل الشهادة فى ذهنه وظيفة معينة بمرتب ثابت ، بينما الأمى الذى لا يحمل أى شهادة يصبح مثل جوكر الكوتشينة ، مطلوب فى كل وقت وكل عمل والفرص أمامه مفتوحة .

وهو شىء غريب ووضع مقلوب أن تغلق أبواب العمل وتقل فرص الرزق أمام المتعلمين ، وتفتح أبواب العمل وتزداد فرص الكسب والدخل أمام الأميين .

وضع لا يوجد إلا فى الدول التى حولت الشهادات إلى أوثان وأصنام يمارس الشباب عبادتها وهو ما لا يوجد فى هذه المجتمعات الغربية التى حققت تقدمها .

إن عدد موظفى الدولة فى مصر يقترب من الـ ٦ ملايين موظف ، إذا أخذنا فى الاعتبار أعداد العاملين فى القطاع العام ، أما فى إنجلترا فقد كانت هناك مناقشة قبل أسابيع أبدت فيها رئيسة الوزراء انزعاجها الشديد ، لأن جهاز

الدولة البريطانى مهدد بحالة ترهل ، إذ اقترب عدد الموظفين فى أجهزة هذه الدولة من الـ ٦٠٠ ألف ! ٦ ملايين موظف فى مصر يقابلهم ٦٠٠ ألف فقط فى بريطانيا العظمى ، لأن الدولة ليست جمعية خيرية أو تعاونية ، ولأن يد العمالة يجب أن تتوزع على مختلف الأعمال ، وبشرط أن يكون كل منهم متعلما ، فالمتعلم يطرد الأمى ويعمل بيديه ، السباك متعلم ، المكوجى متعلم ، بائع السندوتشات فى المطعم متعلم ، سائق التاكسى من النادر ألا يكون إلى جانبه صحيفة أو صحيفتان ..

ولكن عندنا الأمى هو الذى يطرد المتعلم ، لأن المطلوب للعمل فى بلادنا اليوم تلك الأعمال التى تحتاج إلى يد عاملة ، أما حملة الشهادات فيرون أنهم حصلوا على شهاداتهم ليطهروا أيديهم من ممارسة العمل بها !

حاول أن تطلب ممرضة للعمل فى أحد البيوت فى مصر لرعاية مريض والجلوس إلى جواره خمس أو ٦ ساعات فى النهار ، سوف تجد أنه من الصعب أن تجد طلبك ، ولو توافر فإن أجر هذه الممرضة فى ثلاثة أيام يوازى أجر خريج الجامعة الجالس إلى أى مكتب فى شهر كامل ، ومع ذلك مازالت فتيات كثيرات يفضلن انتظار المكتب وهو الاسم المستعار «للمرتب» بدلاً من أن تتعلم مهنة التمريض التى تستطيع أن تكسب من ورائها عشرة أضعاف مرتب خريج أو خريجة الجامعة ..

هذه القيود والخطوط الوهمية هى التى تساعد على انتشار البطالة بين الشباب الجامعى المتعلم ، لأن البطالة فى مصر غير موجودة بين الأميين ، أو قل غير موجودة فى كل الأعمال التى لا تحتاج إلى مكتب ..

أعرف أن هناك قوالب صماء مازالت تحكم مجتمعنا ، خصوصًا عند الزواج وسؤال أسرة العروس عن العريس وتأكدها أنه حاصل على شهادة جامعية ..

أعرف أن هناك من لا يزال يتطلع إلى شهادة الجامعة على أساس أنها سفينة نوح التى يجب أن يتعلق بها ، بينما الواقع أن عدد الذين فى السفينة قد زاد إلى الحد الذى يهددهم جميعًا بالغرق ..

ولعل السؤال الذى يجب أن نبدأ به : من الذى يقوم بالتغيير ؟ الأب والأم اللذان لا يزالان يصران على أن يزوجا ابنتهما من خريج الجامعة ، أم الشباب الذى عليه أن يحطم كل أصنام وأوثان الشهادات الدراسية وينزل إلى ممارسة العمل بيديه ومنافسة الأميين ومطاردتهم ، واستخدام التعليم الذى حققه وسيلة لتحسين الخدمة وترويج العمل الذى يؤديه .

فى رأيى أن الشباب هو الذى يجب أن يأخذ المبادرة ، لأن الشباب هو أداة الثورة والتغيير ، ولو نظرنا إلى كل الثورات التى عرفها التاريخ لما وجدنا قائدًا لها تجاوز سن الأربعين بل كلهم فى سن الشباب ، اعتبارًا من نابليون إلى لينين إلى هتلر وموسولينى وجمال عبد الناصر وغيرهم ، الشباب هو القادر على فرض رؤيته الجديدة ، ومن الطبيعى أن تقاومه الأجيال الأكبر ولكن قوة الشباب وطاقته المتجددة هى التى تفرض كلمتها .

وأنا ألاحظ أن عددًا من الشباب قد بدأ يتقدم الصفوف ويقوم بالتغيير ، ولكن بإحساس من الخجل أو الخوف ..

مازال الشاب المتعلم يشعر بالعيب إذا عمل سائقًا للتاكسى ، مع أن سائق التاكسى المتعلم سوف يكون بالتأكيد أفضل سلوكًا وأخلاقًا وذوقًا من غير المتعلم ..

لا يزال الشباب المتعلم يشعر بالخجل إذا عمل فلاحًا لأنه يريد أن يكون مهندسًا ولهذا أصبحت النتيجة كثرة المهندسين الزراعيين العاطلين وندرة الفلاحين العاملين ..

العيب والعمل هما العقدة التى تخلصت منها المجتمعات الغربية فالعيب عندما لا يعمل الشباب ، أما ما دام يعمل عملاً شريفًا يكسب منه فهو إنسان يعيش

مجتمعه ، ويشارك فى بنائه وفى تقدمه وفى سداد الضريبة التى تستخدمها الدولة فى توفير كل الخدمات .

إن كثيرين من الشباب يطالبون الآباء والأمهات بأن يبدءوا هم بتغيير نظرتهم وأن يعطوا للميكانيكى والمكوجى والسباك والنقاش والممرضة وغيرهم وغيرهم نظرات الاحترام التى يعطونها للذين يجلسون فى المكاتب ، وأنا أقول لشبابنا إنكم قادرين على أن تغيروا بأنفسكم هذه النظرة ، وأن تجبروا كل الأجيال المتقدمة فى السن على تقدير من يعمل بصرف النظر عن الشهادة الجامعية أو المكتب ، بل لعلى أقول أننى أجد بريق أمل فى نماذج تحققت ولكنها مازالت معدودة ومحدودة ، أنتم الشباب القادر على التغيير فلا تيأسوا ..

وعندما تزور أى دولة فى الخارج انظر جيدًا إلى نوعيات الذين يمارسون كل أعمال البيع والشراء وقيادة السيارات والعمل فى محطات البنزين وفى شركات الخدمات والبريد والتمريض ، إلخ ، تجد أنهم جميعًا شباب متعلم ، وضع هدفه أن يعمل ليكسب أما كثرة شبابنا فهدفهم المكتب بصرف النظر عن العمل ، ولو سألت أى فرد فى أى موقع فى وزارة أو هيئة أو شركة لوجدت عشرات بل مئات التوصيات التى توصى على «تعيين» الشباب لا «تشغيله» .. ولكننى متفائل بشبابنا ، وواثق أن سنوات المحنة التى يجتازها اليوم سوف تصلب عوده ، وسوف تجعله يعيد التفكير فى كثير من المفاهيم البالية ، ويعبر بكل مصر من دولة التعيين إلى دولة التشغيل ، ومن دولة المرتبات إلى دولة المكسب .

ولو أعدت النظر فى مجتمعنا سوف تكتشف شيئًا غريبًا ، وهو أننا نواجه فائضًا فى التعيين ، وأزمة فى التشغيل ، هل نستطيع مع زملائك أن تحلوا هذا اللغز ؟!

عزيزى شريف :

هناك سؤال يبدو أنه يطرح نفسه مع قدوم شهر رمضان كل عام ، هذا السؤال هو لماذا نصوم رمضان ؟

وهناك من يتحدث عن الأسباب الصحية أو الروحية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو كلها معًا ويدعو المسلمين لهذه الأسباب إلى صوم الشهر ..

وهذا في رأيى خطأ كبير ، فالذين ينخرطون فى خدمة القوات المسلحة يعرفون أن أحد المبادئ التى يقوم عليها الضبط والربط فى هذه القوات ، هو مبدأ تنفيذ الأوامر دون مناقشة ، وفى الحياة المدنية توجد قاعدة شبيهة هى ادفع ثم تظلم .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا بالنسبة لتعاليم الخالق نبدأ أولا ببحث وتبرير الأسباب دون أن نلتزم بداية بتنفيذ ما أمرنا به واثقين ومقتنعين بأن ما يصدر إلينا من الخالق لا يمكن إلا أن يكون فى خير البشرية وأنه إذا تاهت علينا معرفة الأسباب ، فهو يعرفها وتنفيذ أوامره قضية مسلم بها لا تحتاج إلى مناقشة .

هكذا عزيزى شريف فإنك إذا سألتنى لماذا تصوم رمضان فإننى أقول لك أننا نصومه لأن الله أمرنا بذلك ، ونحن أمام أوامره لا نملك إلا الامتثال والطاعة ،

﴿كتب عليكم الصيام﴾ ، والفرض مرتبة أعلى من الواجب وبالتالى فلا نقاش ولا جدال ..

ولكى نكون مقتنعين بأنه أمر الخالق فلابد أن نكون مؤمنين أولا بوجوده فى كل مكان وبسلطته العلوية ، وكما قلت لك من قبل فى رسالة سابقة فإنه إذا كان العلم قد تمكن من التوصل إلى جهاز كومبيوتر يستطيع أداء ملايين العمليات الحسابية فى الثانية الواحدة ، وهذا الكومبيوتر لابد مع التطورات المذهلة التى يعيشها العلم سوف يمكنه التوصل مستقبلاً إلى إنتاج أجيال أخرى أسرع وأكثر قدرة ، وكل هذا من صنع الإنسان وتفكيره ، فكيف نستكثر أو نستغرب قدرة الخالق الذى مكن الإنسان من التوصل إلى اختراع الكومبيوتر على الإحاطة بكل البشر وبكل المخلوقات بل بكل الكائنات ، بل بكل الموجودات فى هذا العالم أرضا وبحرا وسماء وفضاء ..

وأنت تعرف أن الله عندما أرسل الرسل والأنبياء إلى البشر لدعوتهم إلى عبادته ، حرص على أن يكون لكل رسول معجزته التى يقدم بها للناس أوراق اعتماده كمبعوث من الله برسالته ، وكان الناس يرون هذه المعجزات بعيونهم ، فلما أراد الله أن يختم رسالاته ويرسل محمدًا ليكون خاتم الرسل والأنبياء فإنه اختار له المعجزة التى يراها كل الناس على مر العصور بعقولهم ، كان من المستحيل أن تكون معجزة محمد ﷺ مقصورة عند حدود من يراها الناس بعيونهم لأن محمدًا ﷺ كبشر كان سيموت وكان لابد أن تستمر رؤية المعجزة وتصديق الناس لها واقتناعهم بأنها ليست من صنع بشر وإنما من صنع الله الذى خلق هذا العالم ويعرف أسراره .

وفى حياة سيدنا محمد ﷺ كانت هناك بالفعل معجزات رآها وعاشها الذين عاصروا فترة الدعوة ، كانت هناك معجزة إنقاذ محمد ﷺ من الكفار فى الكهف ، وكانت هناك معجزة الانتصارات التى حققها الرسول فى غزواته بالعدد القليل

من الأنصار ضد الأعداد الكبيرة من الكفار ، وكانت هناك معجزة الإسراء والمعراج ، وغيرها وغيرها ، ولكن كل هذا كما قلت لم يكن كافيًا حتى ليصبح حجة الرسول على ما أتى إلى هذا العالم ، فكان أن اختار الله معجزته فى الكلمة ، والآية ، فكان القرآن الكريم ، وقد نزل القرآن الكريم فى زمان لم يكن أحد فى كل العالم يعرف شيئًا عن أسرار الفضاء والكواكب والجنين فى رحم الأم والكون والحياة والموت ، ولكى تتأكد المعجزة اختار الله نبيًا أميًا لا يستطيع أحد فى زمانه أن يزعم علمه أو معرفته .. وهذا النبى الأمى الرسول الذى تلقى الوحى ومعجزة الخالق فى زمانه وإنما فى كل الأزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وأنت عندما تتأمل فى آيات القرآن وفى علم المعانى والأسرار التى يكشفها لا تستطيع أن تسلم بأن هذه الكلمات وهذه الآيات لا يمكن أن تكون من كلمات مخلوق ..

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ ..

والآية معناها أنهما كانتا نسيجًا واحدًا تفتق هذا النسيج إلى أنوية كثيفة نشأت من الشمس والأرض والكواكب بأجوائها .. وما كان فى قدرة بشر بل فى معرفة بشر ما أن يقول مثل هذه الآية ..

ومعجزة القرآن أنه فى كل عصر سوف يضيف إلى أبناء هذا العصر اكتشافًا جديدًا معانى جديدة حملتها آياته ولكن عجز السابقون عن فهمها .. وهذه هى المعجزة.

ولقد انحصر كل ما نكتبه من كلام فى نوعين اثنين لا ثالث لهما نثر أو شعر . ولكن جاءت آيات الله لتكون نوعًا فريدًا فى ذاته .. لا نثر ولا شعر ..

فالآيات لها أنغام وأوزان موسيقية لا تجدها إلا فى الشعر ، لكنها مكتوبة بطريقة النثر ، وسقوط حرف واحد من كلمة يجعل المستمع يشعر حتى وإن لم يكن من الحافظ لآياته – أن هناك خللا ما فى البناء .. هذا واحد يهز ميزان الكلمات التى تقف مذهولا فى تصنيفها ..

فى سورة الشعراء يقول الحق : ﴿الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ .

وإذا كان المؤكد أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون صادرًا من بشر ولا من صنع بشر فإنه من لدن الحق وهو ما يجعلنا نؤمن بوجوده .. ولكن أين ؟ هل هو فى السماء أو الأرض ؟ إن المكان من تصوير البشر ، وكذلك الزمان ، نحن الذين نضع مقاييس للزمان ونضع مقاييس وأوصافًا أخرى للمكان والله .. الخالق .. مالك كل شىء لأنه الأول والآخر .. فهو أعلى من الزمان .. والزمان يعنى الماضى والحاضر والمستقبل والعمر ؛ ولكن الله ليس له عمر ولا بداية ولا نهاية ، وهو ليس له ماض أو حاضر أو مستقبل .. الله أعلى وأكبر من كل زمان ، فحضوره حضور مطلق ، كذلك فإن الله ليس له مكان ، فلا يمكن القول بأنه فوق أو تحت أو عن يمين أو شمال أو فى الداخل أو الخارج .. لأنه الله ..

وإذا أنت آمنت بالله فإن هذا الإيمان لا يكون فقط بالقول وإنما لابد أن يترجم إلى عمل ، فأنت فى الحياة العادية تعيش وفق قواعد ونظم وقوانين تختلف من بلد لآخر .. ولا تستطيع أن تعيش فى بلد تقول إنك تحترمه دون أن تطبق قوانينه ، لأن التطبيق هو المظهر العملى لاحترام هذه القوانين ، والتى قد تختلف من بلد لبلد ، وإذا كان هذا فى الحياة العادية تجاه القوانين البشرية ، فكيف إذن لا يكون احترامنا لتعاليم الله بتنفيذ هذه التعاليم ..

وقبل أن تطلب من غيرك تطبيق هذه التعاليم يجب أن تبدأ بنفسك أنت ، وأن تعرف أن هذا الدين الإسلامى الذى شرفنا الله بالانتماء إليه وضع هدفًا ساميًا عاليا لحياتنا ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ والعبادة ليست بالمعنى المحدود فى أداء الفرائض ، وإنما هى بالمعنى الأشمل والأوسع ، إنها العمل والتعامل والإتقان والسلوك والحب والخير والواجب والعطاء والتسامح وأداء الحقوق وعدم الغش وبر الوالدين ووفاء الديون والتواضع والعلم والسعى والإنتاج ، إنها المحافظة على صحتك ومراعاة الجار ، وآداب الطريق ومعاونة المحتاجين ، إنها العمل لدنياك ولآخرتك .. وعندما تؤمن بالله وتؤمن بتعاليمه فإنك تشعر بجمال الحياة وبالأمان ، وأكثر من ذلك تشعر بالسلام مع النفس وتتوهج فى داخلك أضواء كاشفة تجعلك تعرف وتفرق بين الحلال والحرام ، وبين العيب وغير العيب ، وأنا أقول لك هذا الكلام لأننى أشعر أن شبابنا فى حاجة ماسة إلى المزيد من الإيمان ، الإيمان بمعناه الشامل الواسع ، وليس بمعناه الضيق المحدود الذى جعل البعض يرونه فى الجلباب واللحية والتسلل من الزمان الذى نعيشه إلى زمان قديم مضى يحاول أبناء اليوم تقليد حياتهم بالأمس ..

وهؤلاء الشباب الذين يفعلون ذلك يفكرون بعقلية رجعية يريدون أن يديروا بها عقارب الزمن إلى الوراء ، ولا يفكرون ماذا لو كان أعلام وأبطال الإسلام فى زماننا ، وعلى حد قول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى فإن شبابنا لو فكر فى طلحة والزبير اللذين عاشا فى بداية ظهور الإسلام لوجدوا أنهما أو غيرهما لو عاشوا فى هذا الزمان لكان منهم مدير مصنع الطائرات النفاثة ، أو الصواريخ ، أو مصنع السيارات ، لأن الإنتاج اليوم هو الذى يعكس القوة ، القوة فى الاقتصاد والقوة فى التقدم .. والمسلم الحقيقى هو الذى يعمل مخلصًا لتقدم أمة الإسلام ، وهو لا يمكن أن يحقق هذا إلا من خلال العمل فى المجالات الحديثة المتطورة ، فى التكنولوجيا والعلوم ، فى انتاج احتياجاتنا من الطعام بدلاً من أن نعتمد

على الغير فى توفير احتياجاتنا من الطعام ، أما إذا تصورنا الإسلام واقفًا عند حدود الصلاة فى المسجد ومحاربة الأغانى وارتداء الجلباب وتربية اللحى ، وتصور كل مسلم نفسه وليًّا لتنفيذ تعاليم الإسلام على الغير بالقوة فهذا هو الفشل ، وهو الضعف وهو التخلف فى الوقت الذى نترك لغير المسلمين التقدم والتطور وإنتاج حاجتهم من طعام واستهلاك ، ونعتمد على ما يجودون به علينا ، وهكذا يكون الإسلام بهذا المفهوم مصدر ضعف بينما تعاليمه العديدة الرحبة مصدر قوة ..

وأنا أريد لك ولغيرك المزيد من الإيمان لتواجه الكثير من مشاكل الحياة خصوصًا مع موضة تفسير كل انحراف وتدهور أخلاقى وإدمان للمخدرات ، بأنه نتيجة ظروف وتمزقات ومشاعر ، أحس بها الذين انحرفوا وأدمنوا .. ومثل هذا القول باطل ، ففى كل العصور لم يحدث أن عاش جيل بغير مشاكل ، ولو بحثت فى حياة كل إنسان لوجدت أنه تعرض للسير على الشوك فترة ، واكتوى بنيران المعاناة ، لكن الفرق بين الأجيال القديمة والحديثة أن هذه الأجيال السالفة كانت تواجه معارك الحياة ومشاكلها بسلاح الإيمان والرضا والقناعة والتحمل ، وإن بعد العسر يسرًا ، وإن الله لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولكننا فى هذا الزمان نجد من يقع فى مشكلة يهرب إلى الإدمان ، ومن يواجه الحاجة لا يمانع فى السرقة ، ويحاول فلسفة السرقة وإعطاءها أوصافًا ، ولكنها فى كل الأحوال ومهما كانت محاولات التجميل سرقة ..

ولو كان هناك إيمان كثير فى النفوس لاحتمت به عند المشاكل ، وعليك أن تعرف يا ولدى أن المشاكل ضرورية فى الحياة بل إن الحياة لا يمكن أن يكون لها طعم دون أن تكون هناك المشاكل ، فأنت لا تعرف جمال طعم الحلو إلا إذا ذقت المر ، والمشاكل هى مر الحياة ومواجهتها وحلها هو الانتصار الحلو ، وليس هناك أقوى ولا أعظم من سلاح الإيمان وزاد الإيمان ، وذخيرة الإيمان

فى مواجهة هذه المشاكل ، والإيمان لا ينبع إلا من نفس مؤمنة ، مؤمنة بالله وبتعاليمه ، وفى ساعات القيظ الشديد والإحساس بالاختناق ، وعندما يبدو أن كل الأبواب قد أغلقت ، فإن المؤمن الذى أدى واجبه لا يملك إلا أن يجلس تحت أقرب شجرة ، ويستند بظهره إلى جذع هذه الشجرة ويسلم أموره لله ، فتهدأ النفس ، ويعود السلام إليها ..

سلامى إليك وتحياتى ، وإلى أن نلتقى فى رسالة أخرى أرجو مزيدًا من الإيمان والصفاء والسلام..

تصدير القوة

عزيزى شريف :

من العبارات التى نرددها كثيرًا أن السلام هو الأصل وهو هدف الشعوب ، وأن الحرب هى الاستثناء والخروج عن القاعدة ، ولكننى عندما أتأمل تاريخ العالم أجد أن الحرب هى الأصل وإن السلام هو الاستثناء ، وأن تاريخ العالم عبارة عن حلقات متتابعة من قوة بعض الدول ووصول هذه القوة إلى درجة أكبر مما تستوعبها إمكانيات تلك الدولة فتبدأ فى التفكير فى تصدير هذه القوة إلى الخارج واستغلالها للسيطرة والاستيلاء على الغير ..

والقوة بالمعنى الحقيقى تختلف من دولة لأخرى ، فهناك قوة البشر وقوة المال وقوة الاقتصاد وقوة السلاح ، وقوة البشر تحدث فى الدول التى يزداد عدد أبنائها حتى يفيضوا عن احتياجات العمل ، فتتجه تلك القوة البشرية إلى الخارج بحثًا عن عمل فى الدول الأخرى وتصبح الدولة مصدرة لفائضها من القوة البشرية ..

وفى المال نفس الشىء وكذلك فى الاقتصاد والتجارة عندما يصل إنتاج الدولة إلى أكثر من احتياجاتها ، فتتجه إلى تصدير الفائض لديها ، وغزو الأسواق الخارجية بإنتاجها الفائض ، وكذلك فى السلاح ، فكل دولة لها قدرات معينة

فى قوة السلاح ، فإذا تجاوزت هذه القوة الخطوط الوهمية للقدرات المعينة ، تولدت فكرة استخدام الدولة ما لديها من سلاح لغزو الدول الأخرى ..

وإذا تأملت العالم تجد أنه نماذج مختلفة من القوى الزائدة المختلفة بين الدول ، فمصر أصبحت من الدول التى تملك طاقة زائدة من البشر ومن ثم أصبحت مصر إحدى الدول الرئيسية فى تصدير العمالة والقوى البشرية للخارج ، وحتى الستينات كان خروج الفلاح المصرى من حدود قريته إلى البندر وركوب القطار إلى القاهرة يعتبر تغربًا وحدثًا تتحدث عنه القرية ليالى وأيامًا ، ولكن ها نحن نرى الفلاح وهو يغادر كل مصر ويركب الطائرة ويسافر إلى دول أخرى بعيدة للعمل فيها ...

وطاقة اليابان الكبرى فيما تنتجه من مئات السلع والمنتجات التى تفيض عن حاجاتها ، وبسعر ينافس إنتاج الدول الأخرى ، ولهذا استطاعت اليابان رغم هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية أن تغزو العالم بإنتاجها وتفرض سلعها على كل دولة ، وأذكر أننى عندما زرت إنجلترا لأول مرة فى منتصف الستينات لم أصطحب معى راديو ترانزستور على أساس أننى لابد وأننى سأجد فى لندن عشرات الأنواع من الراديوهات ، التى تنتجها اليابان والتى كانت دول الخليج العربى تستوردها بكثرة ، ولكنك سوف تدهش عندما أقول لك إننى حفيت على راديو يابانى واحد فى كل لندن فلم أجد سوى بعض الأنواع القليلة جدًا من إنتاج ألمانيا وبأسعار خرافية .. ذلك أن إنجلترا كانت حتى ذلك الوقت تمنع التعامل واستيراد المنتجات اليابانية ولكن مقاومتها لم تستمر طويلاً ، لأن الإنتاج اليابانى استطاع أن يفرض نفوذه فى كل مكان خصوصًا بالأسعار المنخفضة التى يقدمها ، وإذا زرت لندن اليوم فسوف تدهش لمئات وربما آلاف السلع اليابانية التى تباع فى الأسواق هناك بينما لم يكن هناك سلعة يابانية واحدة فى كل لندن منذ نحو ٢٠ سنة مضت ..

ونحن نقول إن الشباب طاقة زائدة عن احتياجات الفرد ، ولهذا تختلف وسائل الشباب فى تفريغ واستهلاك هذه الزيادة من الطاقة ، ولعل أهم ميادين استهلاك هذه الطاقة الزائدة ميدان الرياضة الذى ينفرد الشباب ببطولاته ، والبعض يتصور أن طاقته أو قوته أبدية ولكن يفاجأ بأن هذه القوة تقل فى الوقت التى يزداد فيه نمو تفكيره وعقله ، ويبدأ اللا توازن بين الاثنين ، وقد كانت مشكلة محمود الخطيب أشهر لاعب كرة فى العشرين سنة الأخيرة أنه لاحظ فى السنوات الأخيرة هبوط قدرته على اللعب فى الوقت الذى كانت لديه قدرة أكبر وأسرع على التفكير ، حتى جاء وقت أصبح يشعر فيه بالعذاب لأن عقله يطلب إليه أن يؤدى الكرة بطريقة معينة ، ولكن إمكانياته الجسمانية لم تكن قادرة على الاستجابة لتعاليم العقل فبدأ الخلل واللا توازن بين قدراته الفكرية وطاقته الجسمانية ، وكان قراره بالاعتزال للتخلص من هذا العذاب ..

وبعض الشباب يستنزف طاقته فى هوايات مختلفة .بعضها مفيد وبعضها مضر ، وهناك من يحول هذه الطاقة إلى ميادين الانحراف والإجرام ..

ومشكلة إسرائيل أن لديها طاقة فائضة أكبر من احتياجاتها فى السلاح ، ولهذا من الصعب أن تفكر إسرائيل فى السلام ..

وقد كانت هذه هى مشكلة هتلر عندما وجد كل القوة البشرية من الجنود وقوة السلاح التى أصبح يملكها ، ولأن هذه القوة كانت أكبر من حاجته لحماية نفسه لهذا اتجه تفكيره إلى تصدير الفائض منها إلى الحروب ..

وهكذا نجد جميع الدول منشغلة بالتصدير ، دولة تصدر العمالة ، ودولة تصدر الإنتاج ، وأخرى تصدر المال ، ورابعة تصدر السلاح ، وخامسة تصدر الحروب ..

وحتى قيام الحرب العالمية الثانية قبل ٥٠ سنة كان إيقاع الحياة يبدو بطيئا حالما ، ولكن مع اشتعال الحرب تغير إيقاع الحياة ، فقد تسابق العلماء فى كل مكان لإنتاج الشر ومقاومته ..

وكان أروع ما توصل إليه العلماء الطاقة الذرية ..

وسوف تدهش عندما تعرف أن فكرة هذه الطاقة كانت معروفة لدى الألمان منذ بداية الثلاثينات ، ولكن فكرة إنتاج القنبلة نفسها لم تكن قد اكتملت ..

وفى حربه الكبيرة الواسعة التى غزا فيها هتلر بولندا وهولندا والدانمرك وفرنسا والاتحاد السوفيتى وإنجلترا ودولا أخرى فلقد كان اعتماده عليها تفوق ما يملكه من جنود ودبابات وعلماء كان يحبسهم فى المعامل ، ويكلفهم بمهام معينة ، يأمر بسجنهم إذا لم يؤدوها ..

كانت الطائرة معروفة من قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن عبقرية هتلر الشيطانية جعلته يرى أن فلسفة العلماء تقوم على إنتاج طائرة قوية تطير ألف ساعة وأكثر وهو ما يجعلها مرتفعة التكاليف .. وطلب هتلر إلى علمائه أن يغيروا تفكيرهم وأن يصنعوا طائرة لا يتجاوز عمرها الافتراضى ٥٠ ساعة طيرانًا والواقعى ١٥ ساعة فقط ، مجرد طائرة تقطع رحلة أو رحلتين وبعدها تحال إلى المعاش ، وربما كانت نظرية هتلر قد قامت على أساس أن كل الطائرات سواء منها التى أنتجت تطير ٢٠ ألف ساعة والطائرة التى انتجت تطير ٢٠ ساعة فقط ، جميعها يتساوى فى لحظة إصابتها وانتهاء حياتها ، لكن الفرق أن الطائرة التى صممت تطير ٢٠ ألف ساعة خسارتها كبيرة بسبب ارتفاع تكاليفها ، أما الطائرة التى لا يتجاوز عمرها ٢٠ ساعة فقط فخسارتها بسيطة لأن إنتاجها رخيص .

وبالفعل نجح هتلر فى إنتاج آلاف الطائرات من هذه الطائرة التى وضع هدفًا لها عمرًا قصيرًا لا يتجاوز ١٥ ساعة ، وهذا هو سر إطلاق اسم الطائرة شميدت ١٥ التى اشتهرت فى الحرب العالمية الثانية ، وأنتج هتلر الآلاف منها لكى يهاجم بها الجزيرة البريطانية .

وحتى ذلك الوقت عندما شن هتلر غاراته على المدن الإنجليزية لم يكن اختراع الرادار قد تم التوصل إليه فسارع العلماء الإنجليز وكثفوا أبحاثهم حتى تمكنوا من اختراع الرادار الذى تمكن من كشف الغارات ومواقع الطائرات ، ورفع مستوى التنشين عليها وضربها .

وإزاء هذا التطور طلب هتلر إلى علمائه أن يكثفوا جهودهم فى إنتاج سلاح جديد يمكنه من ضرب الجزيرة البريطانية دون أن تكشفه أجهزة الرادار التى نجح الإنجليز فى اختراعها .

وكانت الخطوة الثانية إنتاج الصواريخ ..

وقد أطلق هتلر صواريخه على الجزيرة البريطانية من كاليه فى شمال فرنسا ، وكان استخدام هذا السلاح مفاجأة للإنجليز .. فهم أصبحوا يفاجئون بقنابل وعبوات متفجرة تتفجر فى بيوتهم ومبانيهم ومدنهم دون أن يعرفوا من أين جاءت هذه القنابل ، هل جاءت من السماء أم من البحر أم من الأرض ، وأى أرض .

ووجد العلماء الإنجليز أن أغلب المبانى التى تنهار تتهدم فى اتجاه واحد وأن معظم الإصابات تحدث بسبب قذيفة تحدث فجوة فى المبنى بزاوية ٤٠ درجة ، وبناء على ذلك سهل عليهم تحديد اتجاه القذائف بأن مصدرها شمال فرنسا ..

ولأن عمليات التجسس كانت تعتمد فى ذلك الوقت على البشر وليس كما هو حادث الآن على الأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع التى تطير على ارتفاعات بعيدة جدًا — فلقد — راحوا يطلقون جواسيسهم لكشف السلاح الجديد خصوصًا وأنهم كانوا واثقين من أنه ليس مدفعًا لأنه لم يكن فى قدرة أى مدفع أن يطلق قذيفة من كل هذا البعد ..

واكتشف الإنجليز بالفعل صواريخ هتلر وعرفوا سلاح الدمار الجديد الذى كان يهددهم به كل يوم ، فقرروا إفساده عن طريق معرفة مواقع إنتاجه ..

وبالفعل نجح الإنجليز فى معرفة أنه يصنع فى منطقة بين موند فكان أن شنوا غارات مكثفة أصابت المصانع بالتعطيل .

وفى خلال هذه الفترة قرر هتلر الانتقال إلى الطاقة الذرية وألهب ظهور علمائه للإسراع فى إنتاج القنبلة الذرية ، وكانت حاجته إليها شديدة نظرًا للصفعات التى بدأ يتلقاها من روسيا وإنجلترا فى الوقت الذى كان علماء أمريكا قد سبقوا فيه إلى إنتاج هذه القنبلة الذرية واستخدمها الأمريكيون بالفعل لأول مرة فى تاريخ العالم يوم ٥ أغسطس ١٩٤٥ عندما ألقوها على هيروشيما ، وبعد أربعة أيام ألقوا قنبلة ثانية على نجازاكى ، واستسلمت اليابان .. وكذلك فعل هتلر ..

ولا أحد يعرف كيف كان تاريخ العالم سيكون ، لو أن هتلر هو الذى سبق واكتشف القنبلة الذرية وبدأ فى استخدامها ؟

ولكن أيا كان الأمر فإن انهاء الحرب لم يكن سوى بداية لدخول عالم جديد من الأسلحة الفتاكة الشديدة ، وأصبحت قنبلة هيروشيما بالنسبة للقنابل الموجودة هذه الأيام أشبه ببمب الأطفال والتقديرات أن ما يمتلكه الأمريكيون والروس من أسلحة نووية كافية لتدمير ما فوق سطح الكرة الأرضية عشرات المرات ..

ولعل السؤال الطبيعى هو : إذا كان ما لدى أمريكا وروسيا يفيض كثيرًا عما يحتاجه أى منهما للحفاظ على أمنها وسلامها ، فلماذا لم تقم أى منهما بتصدير الفائض إلى الخارج وإشعال نيران حرب جديدة ؟ .

إذا كانت النظرية أن كل قوة زائدة يقوم صاحبها بتصديرها إلى الخارج وقد شاهدنا ذلك فى البشر والمال والتجارة والسلاح فلماذا لم يتم حتى الآن تصدير تلك القوى الشريرة الكفيلة بتدمير الحياة فوق الأرض ؟

ما الذى يحفظ سلام العالم من هذه القنابل والأسلحة النووية ؟

هل هو التوازن الموجود بين القوتين فعلا .. وإلى متى ؟

لعلى أطلت عليك الحديث وقد كان تفكيرى أن أجيبك عن هذا السؤال فى هذه الرسالة ، ولكن ها أنت ترى أن السطور قد مضت دون أن أجيب ، فعلى أمل رسالة قادمة أرجو أن نلتقى دومًا على كل خير ومحبة.